

# يا أبا الطيب

(مهدة إلى الشعب اللبناني الحرّ المقاوم والبنّاء)

. سليم مخولي .

ورؤاك: سَيفٌ حارقٌ وبخورٌ  
غابٌ وجيشٌ زاحفٌ منصورٌ  
يمضي شُروراً كي تنزلَ شُورورٌ  
رجعَ الدوي، له الحياةُ نُذورٌ  
ضاقَت به، فَعلى الزّمانِ تَثورُ  
هذي الملوكُ - وجلُّهم كافيورٌ!  
تخبو، وحلمٌ لَقه ديجورٌ  
حتى تَثورَ على الأمورِ أمورٌ.

فينا إليك كئانهُ مكرورٌ  
رجفت لها تحت الصّخورِ صُخورٌ  
والروحُ سهمٌ لو نطقتَ تطيرُ.

في أرضنا، وبه القلوبُ تفسورُ  
نهرٌ تفرّد - والنهورُ كثيرٌ  
ريحُ الجنوبِ لها الشّمالُ مُجيرٌ  
أسمى المعاني - والمياهُ خُمورٌ  
شكلُ السّؤالِ، يقينه التّفسيرُ  
لا يُسَعِفُ التّعليلُ والتّزويرُ.

وأبا البُحورِ - وللبُحورِ هديرٌ  
حقاً جلتُهُ شهادةٌ فنشورُ

زخمُ الحضارةِ والوريثُ صُقورُ  
مُدْ كان وَعَدُكُ - والقنا نبتُ القنا  
والسّيفُ صدقٌ في فصاحةِ برّقه،  
فوق الصّهيلِ عَبرتَ دهرَكَ تاركاً  
نفسٌ لها وجعُ الزّمانِ كأنّها  
ما كان أروعُ ما نطقتَ - أرنبٌ  
أملُ الضّعيفِ مِنَ الحياةِ يراعةٌ  
لا يحقنُ الدّمعَ الجريحَ مَدامعُ

هذا زمني؟ أم زَمَـانُك عائدٌ  
بصليلٍ وَقِعِ دُرُوعِهِ وَسَنابِكُ  
كفٌ على قوسِ الفضاةِ تشدّه

ما زال شِعْرُكَ فيضَ نهرٍ جارياً  
لو قلتُ نهرًا، فالجوازُ حقيقَةٌ  
نهرٌ تَمَشَى في ضِفافِ حُدوده  
تروي الظّمأ، قَبْلَ الشّرابِ بذكِره  
يمشي بِمُنْعَرَجٍ ويمضي واثقاً  
يرتدُّ عنه كُلُّ عِيٍّ طامعٍ

شَيْخَ القَرِيضِ! جوادَ كُلِّ عَـجاجةٍ  
آياتُ شِعْرِكَ رَفَرَتْ راياتها

❖ - طبيب متقاعد من فلسطين ١٩٤٨، له ثمانية دواوين ومسرحية ومجموعة قصص وهو أيضاً فنّان تشكيلي ونحات

وكرامة - عمر الفتى - يمشي بها  
لولا الكرامة ما اغتذت أيامنا  
قدم الحرير على رُخام زمانها

مَضَغُوا الكلامَ بقولِ نثرٍ مُدْعِينِ  
هل يَرْتَضِي ظِلُّ الأَعَالِي قَادِرُ  
الشَّعْرُ بَعْضُ القَلْبِ يَخْفِقُ نابِضًا  
كالنَّارِ، فِعْلٌ، فِي الظَّلَامِ يُنِيرُ

يا خَيْرَ لَفْظٍ عِنْدَ خَيْرِ مُتَوَجِّجِ  
أَبْكَيْتَ خَيْلَكَ! وَالجِيَادُ كَرِيمَةٌ  
كَيْفَ البُكَاءُ؟ إِذَا الجُمُوعُ حَيَاتُهَا

دمعُ الرَّجَالِ مَنَارَةٌ - يا حُرْقَةً!  
فَرَحٌ هُنَا، حُزْنٌ تَجَمَّعَ وَاحِدًا  
لِبَنَانِ رُوحِ الشَّرْقِ، مِرْوَحَةٌ المُنَى  
بِبَهَائِهِ وَصَفَائِهِ وَهَوَائِهِ  
مَنْ عَسَّجَدٍ دَرَبُ النَّسِيمِ بِحَقْلِهِ  
ورِقَاءُ! هَلْ فِي الأَيْكِ رِقَّةٌ شَاعِرٍ

ما سارَ فيها ناصِرٌ ونَصِيرُ  
طَعْمُ المَذَلَّةِ شِئَانِكُ وَمَرِيرُ  
تِيهَاتِ سِيرٍ - وهل أَفَادَ حَرِيرُ؟

الشَّعْرَ، قَالُوا «شِعْرُنَا مَنثورُ»  
فَوقَ الثَّرَى - لَكِنَّهُ التَّقْصِيرُ!  
إيقاعُهُ وَهَجُّ الحُرُوفِ، يُشِيرُ  
وعلى الهَشِيمِ حَرَائِقُ وَسَعِيرُ.

مِنْهُ الرَّمَاحُ على الضَّفَافِ جَسُورُ  
لَمَّا هَوَتْ «وَاسْتَشْهَدَ» الطُّخْرُورُ<sup>(١)</sup>  
مَوْتُ مُبَاحٍ، دَمُّهَا مَهْدُورُ!

تَجْرِي عَابِرٌ إِذ يَعْزُّ عَابِرُ  
والقَلْبُ فِي نارَيْهِمَا مَصْهُورُ  
أَوْ شُرْفَةٌ تَحْتَ السَّمَا، وَسَرِيرُ  
يَصْطَافُ فِيهِ عَاشِقٌ وَسَمِيرُ  
وعلى السَّفْجُوحِ مِظَلَّةٌ وَعُطُورُ  
يَنْسَابُ مِنْهَا جَدُولٌ وَخَرِيرُ؟

١ - كان لأبي الطيب فرس لها مهر يُسمى الطُخْرُور كان في أنطاكية حين كُيِّسَتْ، فقتل الطُخْرُور وأمه عندها قال شعره المشهور

إِذَا غامَرتَ فِي شَرَفِ مَرُومٍ      فَلَا تُقَنَّعْ بِما دُونَ النُّجُومِ  
فَطَعْمُ المَوْتِ فِي أَمْرِ حَقِيرٍ      كَطَعْمِ المَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمِ  
سَتَبْكِي شَجْوَهَا فَرَسِي وَمَهْرِي      صَفائِحُ دَمْعُها ماءُ الجُسُومِ

أَوْ هَدَاةٌ فِي قَلْبِهَا يَغْفُو بِهَا  
يَا أَرْضُ! كُنِي فِكْرَةً وَتَجِدِّي  
كَيْفَ اكْتَنَزْتِ سَنَايلاً وَعِنَادِلاً  
مِنْ غَيْرِ إِذْنِي، مِنْ دُمُوعِي، مِنْ دَمِي

يَا أَرْضَ لِبَنَانِ الْمَطْلِّ عَلَى الْوَرَى  
صِنِّينُ يَعْلو خَيْمَةً دَهْرِيَّةً  
مَا هَزَهُ رَعْدٌ وَسُخْطُ صَوَاعِقِي  
مُتَعَمِّمٌ بِبَيَاضِهِ وَجَلَالِهِ  
يَعْلُو، صَدُوقَ الْوَعْدِ فِي غَايَاتِهِ،

لَا وَقْتَ عِنْدَكَ لِلتَّسَاوُلِ مَنْ  
لَا وَقْتَ لِلفِكْرِ الْمُهْدَدِ بِالثَّوَانِي  
لِلرَّيْحِ أَرْضِ صَفَةِ الْجِهَاتِ، رِمَالِهَا  
هَلَا انْتَصَرَتْ لِخَطْوَةٍ - فِيهَا  
أَسْعَادَةُ الْوَقْتِيِّ مِنْ فَرَحِ الْوَجُودِ  
أَيَّامُنَا - مَرَضُ السِّنِّينِ - كَأَنَّمَا  
مَوْقُوتَةٌ سَاعَاتُنَا - وَرَتَابَةٌ

أَهْلًا، حَمْدَانِ، أَيْنَ سُوْفُوكُمْ  
أَسْيَافُكُمْ تُحَفُّ الرِّخَارِفَ زَيْنَتُ

تَعَبُ الْوُجُودِ وَسِخْرَةُ الْمَاسُورِ  
مِثْلَ الْحَقِيقَةِ، مَا خَفِيَ مَسْتُورِ  
وَعَلَى التُّلُولِ مُشْرَدٌ عُصْفُورُ  
غَنَى، فَأَشْجَى فِي الْغِنَا شُحْرُورُ.

أَنْتَ الشَّمُوخُ عَلَى الْعُصُورِ كَبِيرِ  
مِنْ عِزَّةٍ أَطْنَابُهَا وَجُدُورِ  
حَشْدُ الْكَبَائِرِ دُونَهُ تَصَغِيرِ  
مُتَجَلِّبِ خُضْرِ السِّنِّينِ فَخُورِ  
مَا طَالَهُ التَّهْوِيلُ وَالتَّكْفِيرُ.

تَكُونُ إِذَا اشْتَعَلَتْ وَأُنزِلَ الْمَقْدُورُ؟  
حَائِرًا - وَحُدُودَهُ التَّادِمِيرُ  
صَحْرَاءُ جَفَّتْ، مَاؤُهَا تَقْتِيرُ  
الْبِدَايَةَ وَالنَّهَايَةَ - وَالْأَمَانُ يَسِيرُ؟  
إِذَا هَمَمْتَ تَرَقَّبْ وَحُضُورُ؟  
تَغْتَالُنَا، يَا صَيْفُ مِنْكَ شُهُورُ  
دَارَتْ بِهَا أَوْقَاتُنَا وَتَدُورُ.

أُورَثْتُمْ مَوَاهَا؟! وَالْوَرِيثُ طَرِيرُ؟<sup>(١)</sup>  
جُدْرَانِكُمْ، لَكِنَّهَا صَادِرُ

١ - الطَّرِيرُ ذُو الرُّوَاءِ وَالْمَنْظَرِ، وَالَّذِي نَبَتَ لَهُ شَارِبٌ. قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مَرْدَاسٍ  
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ فَيُخْلِفُ ظَنُوكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ

أَسِيَاءُكُمْ رَقِصٌ يَلُوحُ تَيْمُنًا  
دُخْنَا عَلَى ذِكْرِ الصَّمُودِ تَعْلَةً  
لَا الْأَرْضُ تُطَلِّعُ عُشْبَهَا كَرَمًا، وَلَا  
مَنْ أَيْنَ تَأْتِينَا السَّلَامَةَ يَا تُرَى  
وَكُنَّا الشَّهِيدُ وَأَلْفُ أَلْفِ شَهِيدَةٍ  
الْمَوْتُ يَعْمَلُ، وَالنَّفْسُ رَهَائِنٌ،  
مَا نَامَ طِفْلٌ فِي سَرِيرِ أَمَانِهِ  
نَظَرَ السَّمَاءِ - سَوَادَهَا وَدُخَانَهَا -  
نَادَى، فَأَعْلَى فِي صَرَاحِ دُمُوعِهِ  
عَامٌ فَعَامٌ بَعْدَ عَامٍ بَعْدَهُ  
فَقَالِي مَتَى؟ صَاحَ الْفَتَى - فِي مَنْ عَتَا  
شَقَّ الْهَوَاءَ بِقَبْضَةٍ مَحْرُوقَةٍ  
لِمَشِيئَتِي أَنَا ذَاهِبٌ، وَلِطِينَتِي،

يَا سَيِّدًا مَلَأَ الزَّمَانَ، وَعَاصِرُهُ  
مُذْ كَانَ عَهْدُكَ - وَالْقَضَاءُ عَرْشُ  
عَنَيْتُ لَأَسْمِكَ فِي ظَلَامٍ مَفَازَةٍ

وَالزَّنْدُ تَلْوِي، عَظْمُهَا مَكْسُورٌ  
فِمَتَى سَيِّشْفَى قَلْبُهُ الْمَصْدُورُ؟  
فِيهَا الْقُصُورُ الشَّمَاخَاتُ قُصُورٌ  
وَالسَّلْمُ حَرْبٌ فِي السَّلَامِ تُغَيِّرُ  
مِلءَ الدَّمَارِ وَكُلَّهُمْ مَغْدُورٌ  
وَالْأَرْضُ تُشْكُو زَحْمَةً، وَقَبُورٌ  
حَتَّى تَنْبِئَهُ حُلْمُهُ الْمَدْعُورُ  
دُنْيَاهُ تُشْوِي حَوْلَهُ وَتَمُورُ  
وَالصَّمْتُ صَمْتُ لَوْ أَجَابَ شَخِيرٌ  
يَأْتِي وَيَمْضِي، وَالْمَصِيرُ مَصِيرٌ  
الضَّادُّ، ضِدُّ، ضَيْغَمٌ، وَضَمِيرٌ  
وَمَضَى يَسِيرُ عَلَى هَوَاهُ يَسِيرُ  
قَالَ الْفَتَى - وَالْأَمْرُ مِنْهُ خَطِيرٌ.

يَجْرِي بِنَا، كَيْفَ الْعُصُورُ تَزُورُ؟  
النَّسُورُ إِذَا تَجَلَّتْ فِي الْفَضَاءِ طُيُورُ  
صَوْتُ الْمَعْنِيِّ فِي الظَّلَامِ بِشَيْرُ.

كضرياسيف (آب ٢٠٠٦)